

# البر العظمى

## كما تمثله حياة كارنجي

بقلم صاحب السعادة توفيق دوس باشا

في سنة ١٩٠١ كان يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية رجل من أعظم الأثرياء في العالم هو اندرو كارنجي Andrew Carnegie . وكان رغم بلوغه السادسة والستين من عمره يدير مصانع للفولاذ ليس لها نظير في العالم سواء من حيث الصخامة ووفرة الإنتاج أو من حيث الأساليب العصرية التي تأخذ بها في الصناعة . وفي ذلك العام الذي أشرنا إليه وقف كارنجي كمن يقف في طريق الرحلة المسددة يقيس ما قطع منها وما بقي عليه أن يقطع ؛ ورأى أنه جمع من المال ما يزيد على مئة مليون جنيه وأن عمره الماضي قد انقضى في جمع المال فعمد العزم على أن يمضي بقية عمره في إتمام هذا المال الضخم لا يرا بالفقراء والمحتاجين فقط ، بل أيضا لخدمة المجتمع واتساعه بفضائله وتحقيق مثاليته .

والولايات المتحدة هي وطن الثروات الضخمة ولكننا أيضا بلاد البر العظيم . وليس هذا البر مقصورا على أبنائها ومدنها ، فإن ما يخرج منها كل عام إلى الأقطار الأجنبية يبلغ اثني عشر مليونا من الجنيهات . وهذا المبلغ هو المتوسط في السنين العادية ، أما حين يجتاح النوباء أو القحط أو الليل أحد الأقاليم في الصين أو الهند مثلا أو حين تحتاج أوروبا إلى ما ينقذ أطفالها من الجوع الذي تجلبه عليها الحروب ، فإن هذا المبلغ يزداد ويتضاعف . ونحن في مصر نعرف مؤسسة روكهيل التي تنفق على الصحة العامة في الريف ، كما نعرف الجامعة الأمريكية التي أنشأها مع ملحقاتها أثرياء أمريكيون ولا يزالون ينفقون عليها .

وقد كان كارنجي يقول "يجب ألا يموت الإنسان ثريا" . ومع أن المشهور المألوف أن العصاميين الذين كدوا وتعبوا في جمع المال لا تسحوا أيديهم بالفاق ولا يعرفون بالاسراف . فإن كارنجي الذي بدأ حياته خادما في مكتب قد أففق على البر ٩٨ في المائة من ثروته ولم يترك لاهله غير اثنين في المائة منها .

ولد اندرو كارنجي سنة ١٨٣٥ في إحدى القرى في اسكوتلانده . فلما بلغ الثالثة عشرة هاجر إلى الولايات المتحدة وهناك تقلب وصناعات وضيعة . وكان خادما في أحد المكاتب التجارية ، ثم عملا في مصنع للفولاذ ، ثم انتهى به المصاف إلى وظيفة عامل في التعرف بمدينة بيسبرج . فلما نشبت الحرب الأهلية من أجل تحرير تزوج انتظم في الجيش . ولما انتصر دعاة الحرية وتحريم الزنوح وألغى الرق عاد إلى بيسبرج وأسس "ورشة" صغيرة للألات .

وما زال مكبا على عمله يثار عليه ويتوسع فيه حتى صارت هذه "الورشة" مصنعا للفولاذ . وكان كارنجي متطعا يقظا وقد سمع عن طريقة جديدة لصنع الفولاذ بتكاليف قليلة تمكن المصنع من بيعه بأثمان رخيصة ، وهي طريقة بسمر ، فاستعملها في مصانعه بعد تجارب متكررة كان يلقي فيها انخبة التي تثبط عزيمته غيره ممن لم ياتوا بروح المناظرة والجد . ولكنه نجح في النهاية واستطاع أن يتوّن العالم فولاذ رخيص وكانت طريقة بسمر بمثابة الانقلاب العظيم في صناعة الفولاذ .

ومن ذلك الوقت أخذ المال يتدفق على كارنجي وأخذ هو في التوسع . فكان يشتري تبر الحديد في أمريكا وغيرها من الأقطار ويؤسس المصانع لكي يفي بالطلبات المتكاثرة .

فلما طم السادسة والستين باع نصيبه بمئة مليون جنيه وخرج من صناعة الفولاذ لكي يتوفر على البر ، بل شرع عندئذ يعترف البر كما كان قبل ذلك يحترف صناعة الفولاذ . أى أنه جعل يعد ويكد لكي لا يضيع منه قرش في غير موضعه من البر المثمر سدا الحاجة الإنسانية عليا . وما يدل على عنايته بل تعب في هذه الحرفة الجديدة قوله "إن إنفاق المال أشق من جمعه" . وهو بالطبع هنا يعنى الإنفاق السديد فإن من يملك مئة مليون جنيه ويعقد العزم على إنفاقها لخدمة الإنسانية يجب أن يتعب كثيرا في تعرف وجوه هذا الإنفاق والاهتداء إلى أيها يفضل وأيها يقدم ، أو يؤخر . والذين عرفوا كارنجي بصرحون بأنه كان يتعب في البحث والاختيار والتقدير عندما ينوي عقد هبة أو منحة أو وقف المال المثل على إحدى الجمعيات أو أحد الأعمال أكثر جدا مما كان يتعب في إدارة مصانع الفولاذ .

وكان كارنجي يعنى كل العناية بالأرباح المثل حبة مطلقة ، بل كان يشترط في البر أن ينصب على الجديرين به الذين يعرفون كيف ينتفعون منه . فمن أمثلة ذلك أنه خص المكتبات بالملايين من ثروته ، ولكنه كان يشترط على كل من أمريكا وبرطانيا ألا تنشئ مكتبة إلا إذا قدم السكان المستفهمون بها . سواء بأشخاصهم أو بمجالسهم المحلية ، للأرض التي ستبنى عليها تلك المكتبة . وإلا إذا تهادوا بإدارتها وصيانتها . وعندئذ كان يتقدم هو بنفقات لبناء وشراء الكتب . وبهذه الطريقة أنشأ الآلاف من المكتبات العامة المجانية ، وفي الوقت نفسه علم الناس وسائل البر بالتعاون .

ولما كان كارنجي قد ولد في إحدى القرى الاسكوتلاندية ثم هاجر إلى الولايات المتحدة كما قدمنا ، فهو لم ينس وطنه الأصلي . فلقد وقف مقدارا من المال لمساعدة الطلبة الاسكوتلانديين الذين يعجزون عن سد حاجاتهم في الجامعة . وهذا اوقف يعين العائلات الفقيرة في اسكوتلانده على تعليم أولادهم حتى أن الإنسان ليجد أن كثيرا من الأطباء والمعلمين والمهندسين والمحامين في تلك البلاد قد أنجبهم آباء يعرفون صيد السمك أو غير ذلك من الحرف المتواضعة .

ولكن وطنه القديم لم ينسه وطنه الجديد . فإنه نشأ في مدينة بتسبرج ، التي كان عاملاً في مكتب تلفرافها ثم صاحب مصنع للفولاذ بها ، مدرسة للفنون الصناعية تعد من أفضل المدارس في العالم وحبس عليها ما يكفي للتعليم والبحث العلمي معا . وهذه المدرسة قد أنشئ كثير على طرازها في الولايات المتحدة بعد ذلك .

ومن طريف ما ابتكره كارنجي في البر أنه حبس مالا عطيما يتفق من غلته مكافآت مالية كبيرة لكل رجل أو امرأة ينقد شخصا من خطر ما في الحياة المدنية ويصاب بحرح في هذا الإنتاذ . وقد سمى هذا المال "وقف الأبطال" .

وحبس مبلغا آخر يصل في العام ٢٥ ألف جنيه تنفق على ترقية المدن وتجميلها ورفع مستوى الحياة فيها .

واسم كارنجي يقرن في العالم المتمدن إلى اسم السلام . فقد أتفق كثيرا من جهوده وامتددا من ماله على الدعوة إلى السلام . وهو الذي شيد من ماله قصر الحاي في هولندا حيث تقوم الآن محكمة المنازعات الدولية ، وأل كتاب في هذا الموضوع وغيره من الموضوعات التي تمس الشؤون المدنية والاجتماعية . فمن مؤلفاته : "الديمقراطية لظاهرة" و "نحن الثروة" و "مشكلات اليوم" و "حياة جيمس وات" .

ومات كارنجي سنة ١٩١٩ وكان قد جمع ثروة جديدة وكنها صغيرة بالنسبة إلى مجموع الثروة التي جمعها طيلة حياته ، وقد قدرت هذه الثروة الجديدة بخمسة ملايين من الجنيهات أرصدها كلها على أنواع الأعمال الخيرة .

\*

هذه سيرة رجل وهب للعالم مائة وثلاثة ملايين من مائة وخمسة هي مجموع رأس ماله . وهذا بطبيعة الحال مثل أعني لا يدعو إلى محاكاة في مصر حتى ولو نسبة لثروات الموجودة في هذه البلاد . واكفي أذعو أغنياء إلى الشعور بأن لوطن حتى أموالهم . فلو أن كل واحد منهم يتبرع بعشر ثروته للخير لا تخفى كثير من مظاهر الأوس والشقاء ، وكانت حال مصر اليوم غير ما هي عليه ما

يا هيرزا - اسمال بعلبا  
توفيق دوس  
تخمس : ح نبع رتب اند رالمير - سمارم  
سه بسر ر . . .